المعلم الإلزامي

مجاهد صغير

للأستاذ محمد أبو بكر إبراهيم
المفتش بوزارة المعارف

لولا الألم ما شكا الشاكون ولا بكى الباكون . ولولاه كذلك ما عمل العاملون ولا سعى الساعون . لأنه — مع خفائه — قوة ترسل تياراتها الخفية فيتولد منها النشاط والحركة والحرارة .

شعر بهذا الألم المعلمون الإلزاميون فعملوا مجاهدين ، وأحسوا بوخزه فتنبهوا محاربين . ذلك لأنهم آمنوا بأن الأمية من الأمراض الاجتماعية ، وأن الوطنية تقضى بمحاربتها فى كل مكان — وإن طال الزمان — فجاهدوا متجمعين تحت سماء واحدة هى سماء الوطن ، وتحت راية واحدة هى راية الإلزام . قد تساووا جميعا فى المؤهلات والكفايات ، فكانوا كالخلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها : رئيسهم خادمهم ، وخادمهم رئيسهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، ويقوم بأمرهم أقلهم . هذا التماسك المتين ، بهذه الروابط القوية قد ألف بينهم وأكثر عددهم حتى بلغوا عشرين ألفا أو يزيدون ؛ يعملون ولا يبتغون من وراء عملهم إلا وجه الله ووجه الوطن : سواء أهبت ريح حاصب ، أم هب نسيم عليل . وسواء أمر سليم القرن — أم مر أعضب . يعلمون الصغار بلا كلال ولا ملال ، حتى بلغ من أمرهم أن كلف الواحد منهم القيام بأربعين حصة فى الأسبوع فما ضاق صدره ، ولا ضعف إيمانه بعمله ، ولا يئست نفسه من رحمة الله ، ذلك لأن الغاية التى يرمون إليها من وراء هذا الاحتمال غاية نبيلة تشرق عليهم بأنوارها الساطعة ، فتجعلهم يستهينون بمصاعبها ومتاعبها ، وينسون أنواءها ولأواءها ، ويتسابقون زمرا إلى تحقيقها ، لأن فى تحقيقها فوزا لهم وانتصارا ، إنهم يكدون من أجل إزالة حجب الجهالة والأمية ، ولا يكون الكد إلا بالتجلد والمجهود والعمل ؛ وهم مطمئنون إلى النجاح فى النهاية فالله لا يضيع أجر المحسنين .

غير أن كثرة الحصص — وإن تحملها المعلم الخمول — تعوقه من الناحية الفنية أن يعد دروسه إعدادا وافيا : طريقة وماذة وأسلوبا وتنظيما ؛ إذ لا يجد الفراغ الكافى للتفكير فى العناصر وفى الوسائل الإيضاحية وفى الطرائق المختلفة التى يتخذها لتوصيل المعارف إلى عقول الأطفال وفى اللغة الواضحة التى يفهمها هؤلاء البدئون .

يظن بعض الجاهلين والمتجاهلين أن تعليم الأطفال أيسر مئونة ، وأسهل مسلكا وأقل إعدادا من تعليم الكبار ؛ بدعوى أن مناهجهم يسيرة ، لا تحتوى إلا مادة ضئيلة ولا تشمل إلا عناصر قليلة ، ونسوا أن للصغار طبائع وعقليات وأمزجة تخصهم ، وأنهم فى بداية مرحلة لم يألفوها ، وفى فاتحة طريق لم يعرفوها ، وأنهم متنقلون من حال ساذجة إلى حال تغايرها ، ومن بقعة فى الحياة إلى بقعة تخالفها ، فتعليمهم أمر يتعسر مطلبه ، ويصعب ارتياده ؛ ويبعد التماسه ، ويزداد التباسه ، ويحتاج إلى مهارة فائقة فى الإعداد وكياسة بارعة فى الطرائق ، وتفرغ تام للوسائل .

أدرك هذه الصعوبة علماء النفس والتربية فى العصر الحديث ، وفى العصور القريبة الماضية فأمروا باتخاذ الأهبة لملاقاة الطفل الصغير بكل عدة وعتاد ؛ وأكثروا من مؤلفاتهم التى تكشف عن غرائز الطفولة ورغباتها وميولها واتجاهاتها وقوانينها ، وأطوارها ، وصوابها وخطئها ، ونموها وذبولها ، وسائر ما يتصل بها من دراسة طويلة توضحها ، وتمد السبيل إلى التعرف بها ، والاستيلاء عليها ، حتى إذا ماجاء الوقت لتهذيبها وتقويمها كان المعلم مقتدرا على تخير الأساليب التى تقتضيها الحالة ، فيلتمس الموارد النافعة والوسائل المستطاعة .

وليست هذه المحاولات هينة المطلب ، ولا سهلة الانقياد . إنها تتطلب وقتا كافيا ، وصبرا جميلا ، وفراسة صادقة ، وجهودا كبيرة فى استنباط الوسائل والوصائل ، واختيار الأسس والعناصر ، وترتيب المادة الدراسية ترتيبا منسقا . ومن أجل هذا كان الزمن القليل يضيق بالمعلم الإلزامى أن يقوم بمهمة التربية أتم قيام ، وأن يدبر أمره أحكم تدبير لأن وقته كله مصروف فى التدريس والإلقاء ولا يكاد يجد الفراغ للإعداد والاستعداد . ولكنه مجبر أن يتقلد الجدول بما فيه من حصص كثيرة دون أن يبدى اعتراضا أو امتعاضا . ولما لم يبق من طاقته ، ولا من فسحة وقته إلا جانب يسير فهو يعمل بقدر ما يتسع له الزمن ، وتسمح به الطاقة خاشعا وخاضعا . وحسبه هذا إخلاصا ووفاء .

أما التدريس للكبار فأمره قريب المتجع هين المحاولة ، لأن قواهم الكافية قد برزت بالتجارب والمزاولة وبالدراسة التى عرفوها وبالشجاعة التى حلت فى نفوسهم محل غريزة الخوف ، فيستطيعون النقاش والجدل والتعبير عما يجول بخواطرهم والإفصاح عن أغراضهم والسؤال عن غوامض المشاكل التى تعترضهم فى تفهم المسائل ؛ ولهم من ماضيهم الطويل ومن علومهم الماضية ، ما يصح أن يكون مقدمة طيبة لما يلقى عليهم من المعارف الجديدة المقررة فى المناهج وغير المقررة .

بخلاف الصغار الذين تعوزهم اللغة للتعبير عما يحسونه ، وتعوزهم الشجاعة للتصريح بما يعقلونه ؛ ولهم غرائز كثيرة قد يصيبها الكبت فى إبان ظهورها ، وقد تتخذ مجرى غير محمود

ولم تفكير سطحى ضئيل لا يكاد يعينهم على استيعاب المعنويات وتحليلها و إدراكها إدراكا حقا ؛ فمعاملتهم تتطلب الحيطة والحذر أكثر مما تتطلبه معاملة الكبار .

يجد المعلم الإلزامى هذه النواحى المتشعبة ، وقد يعرف لكل ناحية علاجها وغذاءها ، ولكنه لا يجد الوقت الذى يسعفه لاتخاذ العدة لكل أولئك . ثم يرى نفسه أمام صعوبة أخرى هى صعوبة المنهج وقد فرضت فيه بعض الموضوعات فرضا ، حتى الموضوعات الإنشائية والإملائية بعنوانات خاصة ، وكثير منها بعيد المدى عن مدارك الأطفال .وليس المجال هنا بمتسع لنقد المناهج إنما سقت هذه الملاحظة توصلا إلى أن المقرر فيه صعوبات لا مناص من تذليلها ، وعقبات لا مفر من اجتيازها .

وأشد من هـذا وذاك صعوبة التهجى للبادئين وهى تحتاج إلى معالجة خاصة تجمع بين التشويق والإفادة فى أقصر وقت . وهذه المعالجة تستلزم تفكيرا طويلا فى الطريقة والوسيلة واللغة ... أليست كثرة الحصص عائقة للدرس عن كل هذا ؟

وكيف يدرس المواد المختلفة أو يتغلب على مشقتها من غير أن يستعين بوسائل الإيضاح ؟ إنه اذا لم يجدها حاضرة لديه ، فطبعى أن يسوق أطفاله سوقا إليها سالكا بهم أوعر المسالك ، وأضيق المضايق ؛ ومن ثم كان التخفيف عن المدرسين فى حصصهم أمرا تقتضيه مصلحة التعليم ومصلحة المتعلمين .

وأعتقد أن التخفيف عنهم لايجوز أن يجىء طفرة ، ولا دفعة واحدة ، بل على التدريج ورويدا رويدا ؛ ذلك بأن يكتفى فى الوقت الحاضر بالمدارس الإلزامية الموجودة فعلا ، فيقف تيار الزيادة المطردة فيها أمدا معلوما ؛ ويوزع المدرسون الجدد الذين يعينون كل عام على المدارس الخالية ، ليقوموا بأنصبتهم تخفيفا عن المدرسين القدامى الحاليين .وتسير الحال على هذا المنوال مدة من الزمن حتى يتعادل مدرس التعليم الإلزامى بزميله مدرس المدارس الأولية فى عدد الحصص الأسبوعية ، أو يقرب كل من الآخر فتكون الحصص كل أسبوع ستا وثلاثين حصة أو أقل من ذلك إلى أن تكون اثنتين وثلاثين .

فإن العدالة تقضى بالمساواة بين الفريقين فى العمل مادام المنهج واحدا ، والمؤهلات واحدة ، والنظام واحدا ، ولا معنى للتفرقة بينهما حتى فى ساعات العمل .

وفى الحق أننا نستطيع أن ننتفع بالمعلم الإلزامى فى جميع نواحى الحياة الثقافية ، والاجتماعية والعمرانية والدينية ، فى القرى المصرية متى خففنا عنه بعض ما يقوم به من أعباء الحصص ، وحفظنا له كرامته الشخصية ، ليكون قدوة للفلاحين فى كل شىء . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

محمد أبو بكر إبراهيم

المفتش بالتعليم الثانوى بوزارة المعارف